الأسرة والمجتمع (١)

من المعتقدات الخاطئة ولا شك ، معتقد أن الأسرة نظام طبيعي فطري يرجع إلى الغريزة أو بالأحرى الى غريزة بعينها ، ينبغي إذا ما أنعمنا النظر قليلاً في تحليلها ، أن نعدوها غريزة الأسرة . ليس من ذلك شيء في الواقع . فمن الخطأ القول بأن الأسرة نظام تعاوني اقتصادي ، كان في منشئه الاول تعاونيًا صرفاً كما نرى في المجتمعات البدائية حيث انصرف النساء الى القيام بكل حاجات الجماعة ، ما عدا الصيد والدفاع عن النفس ، فكانت هذه من اختصاص الرجل . ومع نشوء المدنيات وتطورها نشأ العامل الاقتصادي بالإضافة الى العامل التعاوني . فالأسرة في نظامنا الحاضر نظام تعاوني اقتصادي أخذت رابطته تنحل شيئاً بعد شيء ، وقد يأتي زمن تنحل فيه هذه العقدة التعاونية الاقتصادية انحلالاً تامًّا .

دليلنا على ذلك ملموس فالأسرة التي تربط الأسرة في هذا العصر أساسها الرفاهية الاقتصادية . ولهذه الرفاهية الاقتصادية قانون ثابت . فكلما تهيأت للاسرة مسببات الرفاهية الاقتصادية ، ضعفت الناحية التعاونية ، وأصبحت الرابطة الأسرية مسألة موازنة بين مصالح مادية صرفة . ولذا ضؤلت مسببات الرفاهية الاقتصادية قويت الناحية التعاونية بضرورة الحال ، وأصبحت الرابطة الأسرية مسألة حاجة تقتضيها لزوة الاحتفاظ بالذات ، ومواجهة مطلبات الحياة بقوة تستمد من ذلك التعاون .

إذا حللنا هذا القانون بشيء من العمق اتضحت لنا حقيقته اتضاحاً أقوى وأظهر . فاذا كانت الرفاهية الاقتصادية مصدرها ثروة الرجل واستأثر بها ، ضعفت رابطة الأسرة ، لأن المرأة لا تجد لها مصلحة في الابقاء على هذه الرابطة التي تعود منفعتها على الرجل وحده .

---

(١) من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيس الجمعية التضامنية التزمت طبعه ونشره دار أحياء الكتب العربية بمصر ، ١٤٤ صفحة من القطع الأوسط - ١٩٤٥

وعكس ذلك مطرد أيضاً ، أي اذا كانت الرفاهية الاقتصادية مصدرها ثروة المرأة واستأثرت بها دونه . فاذا ضعف المؤثر الاقتصادي وأخذ المؤثر التعاوني سبيله الى العمل في النظام الأسري ، تعذّر على هذه العقدة التي تسمى الأسرة البقاء ما لم يقم كل من طرفيها بنصيبه من وجوه هذا التعاون . فأسرة ما ضعف في تكوينها العامل الاقتصادي لن تقوم بغير التعاون ، فاذا لم يتزن طرفاها في الاضطلاع بمقتضياته ، ضعفت رابطة الأسرة وربما انحلت تماماً .

عاملان اذن لا غيرهما كانا السبب في نشوء ما نسميه الأسرة : التعاون ابتداء ، ثم الاقتصاد تعقيباً . وهما عاملان يتزايلان ، بمعنى ان أحدهما اذا قوي ضعف الآخر ، وهكذا دواليك الى حيث لا انتهاء .

***

لا نستطيع أن نكرر أن هنالك أثراً غريزيّاً يتقدّم ذلك النظام الذي نسميه «الأسرة» ذلك هو أثر غريزة حفظ الذات وما يترتب عليها من غريزة حفظ النوع . غير ان العلاقة بين الأسرة وبين الأثر الغريزي الظاهر في حفظ الذات وحفظ النوع هي أشبه بالعلاقة بين فن الطهي وغريزة الاغتذاء . فالاغتذاء وطلب القوت غريزة ، ولكن الصورة التي يُهيَّأ بها الغذاء ، ليست أكثر من فعل ثانوي تطلبته ظروف تطورية معروفة . أضف الى ذلك أن غريزة حفظ الذات والنوع هي فعل فزيولوجي (وظائفي) في حين أن الأسرة ظاهرة بعيدة كل البعد عن تلك الغريزة الوظائفية ، وما هي غير مظهر اجتماعي انتضته ظروف طارئة ، يتغير ولا شك بتغيرها وبتكيف بمقتضياتها . فليس فيه اذن من صفة الثبات الغريزي شيء اطلاقاً .

***

إن نظام الأسرة الذي قام كما أسلفنا على ضرورة تعاونية ابتداء ومنفعة اقتصادية تعقيباً بمقتضى تطور الحالات المدنية التي مرّ بها الانسان ، قد يتكيف بحسب النظام الاقتصادي القائم في كل جماعة من الجماعات . فالأسرة من حيث الرابطة والاتصال وقرة التماسك في نظام رأسمالي ، غيرها تماماً في نظام شيوعي . وهي في مجتمع يعترف للمرأة بحق الملك والعمل والانتاج ، غيرها من مجتمع ينكر على المرأة هذه الحقوق . وما القوانين والشرائع التي نظمت الأسرة رابطة الزواج وأواصر القرابة الاّ نتيجة التشريع من جانب واحد من جانبي الجمعية ، جانب الرجل الذي استعمل دائماً حق الأقوى . ومن شرائع الأسرة على أساس

الاحتفاظ بسلطته على المرأة ، ومرت بشرائعه تلك أطوار متعاقبة انتهت في جميع مظاهرها جهة واحدة ، هي جهة السيطرة على الشطر الأضعف من شطري المجتمع ، فتناوبت ذلك الشطر ألوان من السياسات أشبه بتلك التي تناوبت سياسة الاسترقاق في كثير من أمم الأرض

***

قلنا من قبل انه لا يوجد من شيء يقال له « غريزة الأسرة » حتى يقال بأن النظام الأسري غريزي ، أي فيه ثبات الغريزة وخصائصها ، وليس في علم النفس ولا في علم الاجتماع ولا في علوم الأحياء قاطبة شيء يدعى « غريزة الأسرة » . وإذن يكون هذا النظام انساني وضعي صرف ، فيه كل صفات الأشياء الانسانية الوضعية القائمة أول شيء على عدم الاستقرار المتغيرة بمقتضى الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، الخاضعة لشروب السياسات المدنية في مختلف العصور . وما أبعد شيء هذه صفته عن أن يكون غريزة . زد الى ذلك ان ليس في نظام الأسرة من ناحية واحدة ينطبق عليها تعريف الغريزة كما هي معروفة في علم الأحياء أو النفس

أعتقد فوق ذلك أن الأسرة كما نظمتها القوانين والشرائع وكما هي قائمة اليوم ، بل وكما عاشت في بعض العصور البدائية ، كانت ماناً صد الطبيعة عن ان تجري على هذا الحيوان الناطق حكم سننها الطبيعية التي أدت إلى نشوء الأنواع ، فعاقت بذلك ، وبخاصة في عصور التمدن التي سيطرت فيها القوانين والشرائع ، نماء الصفات العليا في الانسان ، صفات العقلية الممتازة والفن الرفيع وأخلاق الفاضل وما الى ذلك .

فان من الثابت ان الصفات الأدبية تورث كما تورث الصفات البدنية تماماً . وقد ثبت ذلك ببحوث العلامة « فرنسيس غالتون » [1] و « داروين » [2] وشتر تون هل » [3] وغيرهم . والصفات الممتازة في الأفراد قد تظهر فجأة كما ثبت ذلك ببحوث كثيرين من المشتغلين بعلم الوراثة ، فاذا لم تحفظ هذه الصفات بالانتخاب الصناعي ، فقدت قوتها وخصائصها ، وظلت تظهر في فترات منقطعة متباعدة ثم تختفي في ذلك البحر اللجي من الصفات التي هي أدنى منها ، ولا يخرج منها سلالة برأسها إلا بتأثير عوامل طبيعية لا تتيسر للانسان الآن في بقعة من بقاع الأرض ، وان يسرت في ما سلف من الأحقاب .

ولقد استطاع الانسان ان يخرج سلالات من الحيوان وضروباً من النبات ذوات صفات

---

(١) Hereditary Genius (٢) escent of Man

(٣) Heredity and Selection in Sociology

جديدة ممتازة بالانتخاب الصناعي[1] والانتخاب اللاشعوري[2]. وذلك مبحث مستفيض في نشوء السلالات ليس هذا موضع شرحه. ولكن الذي يعنينا هنا هو القول بأن شرائع الزواج والأسرة قد تتطور بحكم العلم الى ما يشبه ذلك في المستقبل. بل إني أقول ان هذا ينبغي أن يكون مذهباً اجتماعيًّا يقصد به توليد سلالات ممتازة بالانتخاب الصناعي من أفراد النوع البشري. وسوف آخذ في تأليف كتاب في هذا المذهب عما قريب.

لقد اثبت سير فرنسيس غالتون ان وراثة الصفات الأدبية والعقلية أمر ثابت علميًّا وعمليًّا، ودلل على مذهبه باحصائيات مستفيضة جمعها عن أسر انجليزية توارثت الفضاء والسياسة والقيادة والأدب والشعر والموسيقى والتصوير واللاهوت وغير ذلك. فأي مانع يحول دون الاحتكام في هذه الظاهرة لتصبح يوماً ما العامل الأول في تكوين فئات ممتازة من النوع البشري تتوارث النبوغ جيلاً بعد جيل؟

ذلك دليل آخر على أن الأسرة ليست نظاماً أبديًّا غريزيًّا كما يقول البعض، وإنما هي نظام مدني صرف شرّع له شطر واحد من شطري الجمعية، فانحدر إلينا على الصورة التي نراها اليوم، ونرى معها كيف تؤثر فيها عوامل المجتمع تأثيراً يثبت لدينا انها أبعد شيء عن أن تكون غريزة أو نتاج غريزة، وأنها متغيّرة متقلبة بحسب النوازع الاجتماعية

***

والكتاب حسن الأسلوب واضح العبارة، غير ان لنا على بعض المصطلحات التي استعملت فيه ملاحظات منها استعماله كلمة «وحدانية» (ص ٦٨) كقوله — «وحدانية الزوجة مع تعدد الأزواج»، ومن الممكن أن يكتفي بعبارة «تعدد الأزواج»، وكقوله «وحدانية الزوج مع تعدد الزوجات»، ويكتفي في ذلك بعبارة «تعدد الزوجات»، الى غير ذلك. ثم ان لفظة «وحدانية» أصبحت من المصطلحات المخصصة تخصيصاً دقيقاً جداً في الفلسفة القديمة فاذا ذكرت دلّت على «وحدانية الله»، بحيث اذا ذكرت غير مضافة، دلت على هذا المعنى بغير حاجة الى بيان الإضافة. ويحسن ان لا تستعمل في غير ما تخصصت له.

---

(١) Artificial Selection

(٢) Unconscious Selection.